كانون الأول ٢٠١١

إلى إخوتي الخمسة

هَا أنا أبشّركم بفرح عظيم (لو ٢: ١٠)

أرض سماوية!

إني أتأمل سراً عجيباً وجديداً، فيرنّ في أذني صوت تسبحة الراعي المتغنّي بترنيمة السماء...
ها هي الملائكة ترتل، ورؤساء الملائكة تتغنى في انسجام وتوافق. الشاروبيم يسبحون بتسابيحهم المفرحة، والساروفيم يمجدونه. الكل اتحد معاً لتكريم ذلك العيد المجيد، ناظرين الإله على الأرض، والإنسان في السماء، الذي من فوق يسكن هنا على الأرض لأجل خلاصنا، والإنسان الذي هو تحت يرتفع إلى فوق بالمراحم الإلهية!
ها هي بيت لحم تضاهي السماء، فتسمع فيها أصوات تسبيح الملائكة من الكواكب، وبدلا من الشمس سطعت شمس البرّ في كل جانب. لا تسل: كيف هذا؟! فإن الله إذ يريد، تخضع الطبيعة، لقد أراد، وكان له سلطان، نزل، وخلص... والكل يتحرك في طاعة لإرادته. هوذا اليوم الذي وُلد فيه ذاك الذي هو كائن، وصار غير الذي كان عليه، إذ وهو الله صار إنساناً، لكن بلا انفصال عن لاهوته، أي عن نفسه، وبلا نقص أو زيادة في لاهوته. لأن "الكلمة صار جسداً" دون أن تتغير طبيعته...

ليأتِ الكل إليه!

ليأتِ الملوك، ويروا الملك السماوِي، هذا الذي جاء على الأرض بلا ملائكة ولا رؤساء ملائكة ولا عروش ولا قوات، مع أنه لم ينس ملائكته، ولا تركهم بلا رعاية...!
ليأتِ الجنود ليخدموا قائد الجنود السماوية. لتأتِ النسوة لتمجد ذاك الذي وُلد من امرأة، حتى يحول مرارة آلام الولادة إلى لذة. لتأتِ العذارى إلى ابن العذراء، متطلعات بفرح إلى ذاك الذي يعطي اللبن... يتقبل غذاء الأطفال من أمه العذراء.
ليأتِ الأطفال ليعبدوا ذاك الذي صار طفلاً صغيراً حتى يهيئ من أفواه الأطفال والرضع سبحًا للطفل الذي أقام منهم شهداء في ثورة هيرودس.
ليأتِ الرجال إلى ذاك الذي صار إنساناً حتى ينزع البؤس عن عبيده. ليأتِ الرعاة إلى الراعي الصالح الذي يبذل نفسه عن خدامه. ليأتِ الكهنة إلى ذاك الذي صار رئيس كهنة على رتبة ملكي صادق.
ليأتِ العبيد إلى ذاك الذي أخذ صورة عبد حتى يحررهم من العبودية. ليأتِ صيادو الأسماك إلى ذاك الذي اختار من بينهم تلاميذه. ليأتِ العشارون إلى ذاك الذي اختار منهم متى الإنجيلي. لتأتِ النسوة إلى ذاك الذي قدم قدميه لتغسلهما التائبة بدموعها. وإنني إذ احتضن الجميع، يأتي الخطاة لينظروا "حمل الله الذي يحمل خطايا العالم".

هذه هي فرحتي ليفرح الجميع، وأنا أيضًا أريد أن أفرح معهم، مشتركًا مع المحتفلين بميلاده. . . . .

القديس يوحنا الذهبي الفم